تحقيق

ميشال كرم
Michelkaram2@hotmail.com

سرايا حاصبيا شاخت وطلاها الزمن بالقشور السود
القلعة الشهابية وارثوها يقيمون فيها منذ 847 سنة

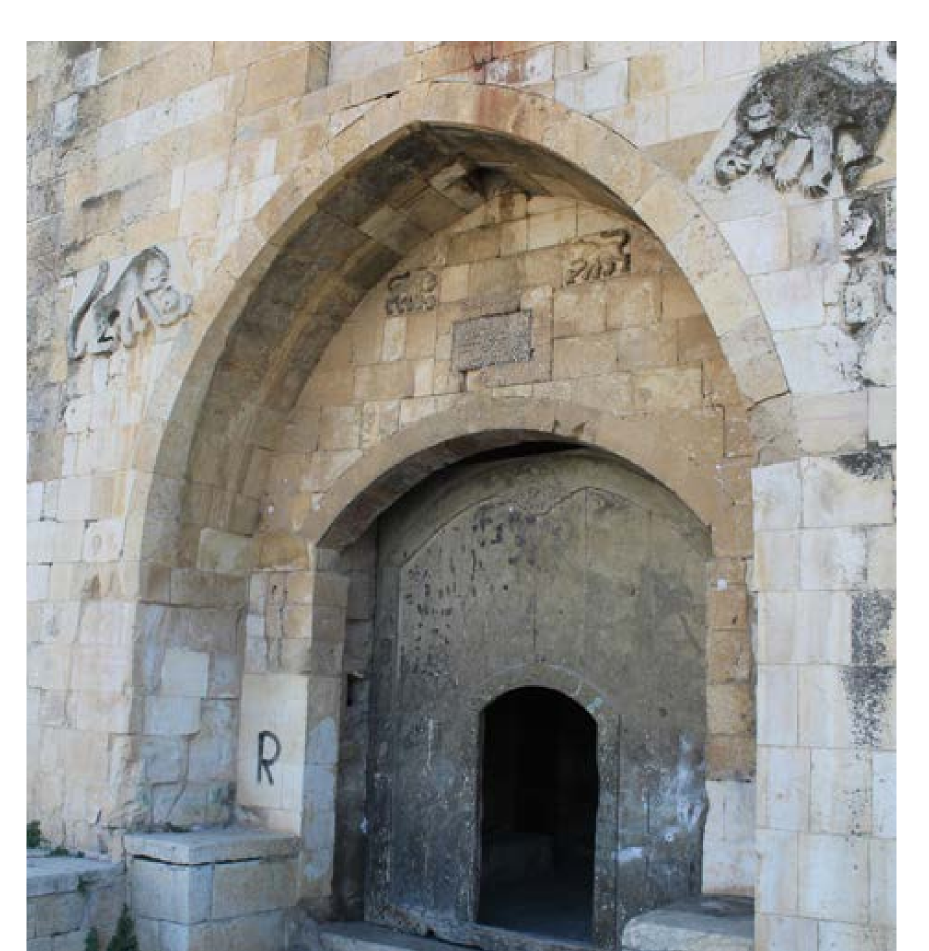
قلعة حاصبيا او السرايا الشهابية كما يسمونها، تنفرد بخصوصيات تميزها عن سائر الاماكن الاثرية في لبنان، ليس بتاريخها فقط، بل كونها الوحيدة التي ملكيتها خاصة موزعة على عدد من آل شهاب وانسبائهم بالمصاهرة، والفريدة التي ما زالت مأهولة منذ القرن الثاني عشر من دون انقطاع رغم ان الاهمال يقوّض معالمها

غابت الدولة عنها واهملتها منذ زمن طويل ولا زالت، ولم تحظ باهتمامها الا عندما كان الامير موريس شهاب مديرا عاما للاثار، فادرجها على لائحة الاماكن الاثرية، وشكل فريقا اختصاصيا انجز بعض الترميمات البسيطة خلال العامين 1965 و1975، وظلت الوعود التي اطلقت في شأن تأهيلها واعادتها الى رونقها ووهجها عرقوبية. لكن الاسرة الشهابية لم تغب عنها منذ عام 1170. فهي القلعة الوحيدة التي ما زال وارثوها يقيمون فيها منذ 847 سنة من دون انقطاع.

وان كانت القلعة تضم طبقات ثلاثا تحت الارض تعود الى زمن الرومانيين، فان تاريخها ارتبط بتاريخ الصليبيين الذين بنوها، وبتاريخ الامراء الشهابيين الذين حرروها من الصليبيين اثر انتصارهم الكبير الذي حققوه بقيادة اميرهم منقذ سنة 1170 على الكونت اورا دي بوربون، ثم اعادوا بناءها ومكثوا فيها دون غيرهم طيلة هذه القرون. الا ان بعضهم اغرتهم الهجرة الى بيروت والشام والبلاد العربية واوروبا واميركا، وتقلص عددهم الى ثلاث عائلات ما زالوا مستقرين فيها بعد ان كانوا في منتصف القرن العشرين على سبيل المثال 63 اسرة.

القلعة التي تشرف على بلدات عين قنيا وشويا وكوكبا ومجرى نهر الحاصباني، كانت تعتبر مفخرة معمارية تزخر معالمها بتنوع تداخل فيه الطابع الغربي بالعربي. لكن هذه الرائعة الاثرية التي تشهد على عراقتها تعاقب الحضارات الرومانية والصليبية والشهابية، قد خسرت كثيرا من قيمتها المعمارية الفنية، لانها لم تلق منذ عقود متعاقبة غير التهميش، حتى تصدعت جدرانها ونبتت فيها الاعشاب البرية، وتمددت في حناياها الفطريات، ونخرها التلوث البيولوجي، وغطتها القشور السود، فتداعت اجزاء من عقدها الصليبي نتيجة تسرب المياه الى اسفلها، وتهاوت شرفاتها ونوافذها المعروفة بالمندلون، وامّحت بعض الكلمات من عبارات تؤرخ لاحداثها، ولم تثمر زيارات بعض سفراء الدول الاوروبية عن اي نتيجة مرجوة لانقاذها مما عابها من تشوهات وانتقاص من مكانتها التاريخية والمعمارية، حتى بات ماضيها المجيد يخجل من حاضرها المزري.

كان الامير منذر الشهابي الذي يسكن القلعة مع الاميرين مفيد وعادل، يجلس في قاعة الاستقبال من الطبقة الارضية ذات العقد الصليبي، وتتوسط جدارها صورة للامير بشير الشهابي، بادرنا مرحبا بالمجلة المهتمة بالسرايا الشهابية وتاريخها، مثنيا على "المدير العام اللواء عباس ابراهيم الذي رفع رأس الوطن عاليا والذي يولي امجاد لبنان واللبنانيين اهتمامه من خلال تسليط الضوء عليها عبر المجلة التابعة لمديريته بهدف ابراز الذاكرة الجماعية الوطنية والحفاظ عليها".



المدخل الرئيسي للقلعة.



الواجهة الامامية للسرايا الشهابية.

يروي "المير" قصة القلعة من دون الحاجة الى سؤاله. ويبدأ من مكان جلوسنا في القلعة التي ولد فيها ويمضي تقاعده داخل قاعاتها الفسيحة عن عمر يناهز 83 سنة، ويدخل من تلقاء نفسه في تاريخ هذا المعلم الاثري الذي يعود الى 3500 سنة، والذي كان في الاساس قلعة رومانية تضم ثلاث طبقات تحت الارض.

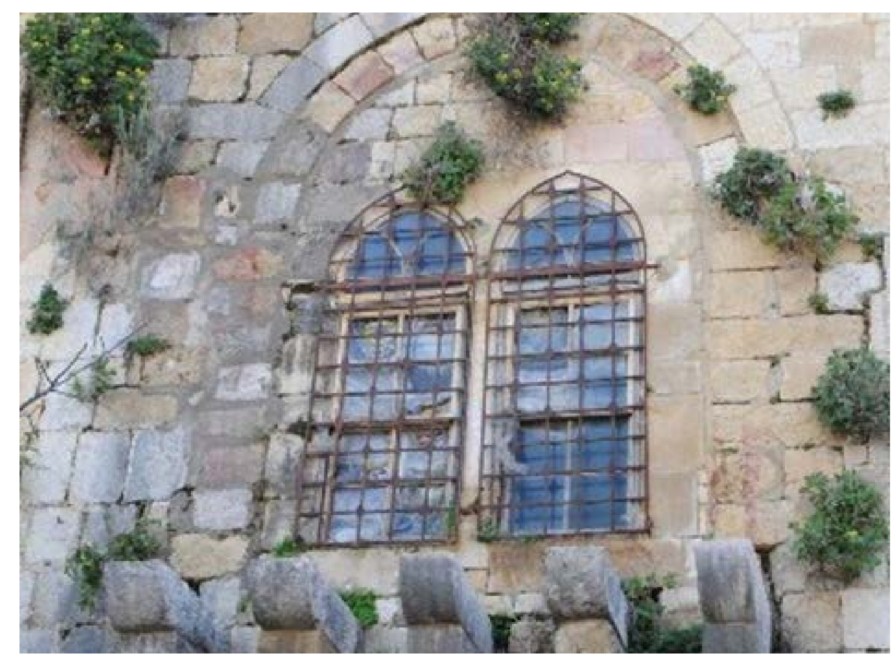
ولا يزال "المير" يذكر كيف كان يتسلل عندما كان فتى في العاشرة من عمره الى دهاليزها عبر ادراج تقوده الى اقبيتها الفسيحة، قبل ردم مداخلها التي نال الزمن منها، ويطيب له اليوم الجلوس في القاعة التي يتوسطها حوض رخامي يحوي نافورة ماء تسمى "الفستقية"، وتعلو مقاعدها الحجرية رسومات تزين جدرانها بكل انواع الزهور التي لا تضاهى بالوانها البديعة، وتضفي عليها بعض العبارات الموشّاة باناقة وروعة صورة الطنافس، وتعود احداها الى حاكم جبل لبنان الامير منصور الشهابي "حسبي الله الغفور وكفى عبده منصور"، الذي كان يجلس فيها منذ اكثر من عقدين ونصف العقد، للاطلاع من زواره على شؤون الامارة وشجونها.



3 عائلات شهابية تستقر فيها بعدما كانت 63 عام 1950

واذا شاءت الظروف الدخول الى السرايا الشهابية من بوابة ديوان "الفستقية" الذي كان شاهدا على لقاءات الامراء الشهابيين مع المقدمين والمشايخ والوجهاء لاتخاذ القرارات المصيرية والانمائية المتعلقة بوادي التيم، لكن الدخول الى السرايا من بابها الرئيسي يعطي الزائر فكرة عن اهميتها. اذ يطالعه عند الجدران المحاذية للبوابة المقنطرة نقوش لاسدين ضخمين مقيدين بسلاسل على مقربة من ارنب ضعيف طليق، للدلالة على نبل العائلة الشهابية ونهجها في تحقيق العدالة الاجتماعية وارساء مفهوم العيش بهناء وسلام بعيدا عن بطش الاقوياء، وتتوسطهما لوحة باللغة العربية لتأريخ بناء الامير علي شهاب جناحه الجديد سنة 1009، وفي اسفل تلك القنطرة فتحة مخصصة لصب السوائل المغلية على المهاجمين الذين يحاولون اقتحام القلعة.


باحة في الدار الفوقا للقلعة وبدا العمودان اللذان كانا مثابة رادار في الوسط.


ثنائية المندلون في السرايا الشهابية.

> **مفخرة معمارية تزخر بتنوع تداخل فيه الطابع الغربي بالعربي**

◀ تعلو المدخل الرئيسي للواجهة الامامية شرفة ثلاثية القناطر، تطل على مسجد تعود مئذنته المسدسة والمزينة بالحجارة الملونة الى القرن الثاني عشر، وقد ازدانت قناطرها بزخارف هندسية تقادمت وكاد الزمن ان يقضي على هويتها واصلها وفصلها إذ لم يبق منها سوى بعض خطوط الجمال التي ما زالت صامدة. لكن ما ان يعبر الزائر بوابة السرايا حتى يدخل الى رواق معقود بالحجارة عرضه اربعة امتار وارتفاعه ثلاثة امتار، وتطالعه غرفة المقصلة التي كانت تنفذ فيها احكام الاعدام، قبل ان يسترق نظره عبر شقّ في الجدار الى غرفة سفلية تفضي الى دهليزين احدهما يقود الى نهر ابو دجاج والاخر الى المسجد، كان الحاكم الصليبي يستخدمهما للهرب عندما يداهمه الخطر.

وتتفوق القلعة بمدخلها المعقود بارتفاع 32 مترا ليكون من بين الاعلى في شرق البحر المتوسط، وبجدرانها السميكة البالغة مترا ونصف المتر لمقاومة قذائف المنجنيق في اثناء الحروب، وبباحتها الممتدة بطول 60 مترا وعرض 40 مترا، والتي يحيط بها جناح اقام فيه ابراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر عندما اتى الى حاصبيا لمحاربة ثوار الموحدين الدروز بقيادة شبلي باشا العريان سنة 1838، ولا تزال بارودته البرهومية ذات الماسورة الحديدية الطويلة بطول قامة الرجل، تتصدر جدران بعض منازل اللبنانيين كتحفة اثرية، وعلى عتبة باب هذا الجناح نقشت شعارات الفرق العسكرية الصليبية التي خدمت في القلعة.

تجاور الجناح قنطرة بارتفاع تسعة امتار داخل جدار من الحجر الاسود والابيض، يعلوها مندلون بقناطر ثنائية، كانت المدخل لديوان الست شمس زوجة الامير بشير الشهابي الثاني، الذي حكم جبل لبنان خلال الربع الاخير من القرن الثامن عشر وصولا حتى منتصف القرن التاسع عشر، ما يزيد من اهمية الديوان هو دلالاته الرومنسية. فهو المكان الذي سحرت فيه شمس الامير بشير وبدأت فيه قصة الحب التي جمعتهما، عندما تنكرت شمس بلباس جاريتها وسكبت المياه الساخنة على يدي الامير لغسلهما بقصد لفت نظره، فتطلع اليها قائلا بصوت جهوري "احرقتِ يدي يا جارية".

فاجابته: "انت اَحرقت قلبي منذ ان التقيتك ولا تبالي".

ادرك الامير بشير انها الست شمس فدبّ الارتعاش في قلبه. كان ذلك في العام 1787 قبل ان يتبوأ امارة الجبل، عندما اوفده الامير يوسف في مهمة الى حاصبيا تتعلق

بمقتل زوج الاميرة شمس الذي كان اميرا ثريا، وبنيّته ابعاد بشير عن عاصمة الامراء في دير القمر بعدما تعاظم شأنه، فاغتنم الاخير الفرصة وتزوج من الست شمس التي كانت ايضا لا تقل ثراء عن زوجها. وعاد الى دير القمر بثروة كبيرة اشترى ببعضها ارض قصر بيت الدين الذي بناه لاحقا.

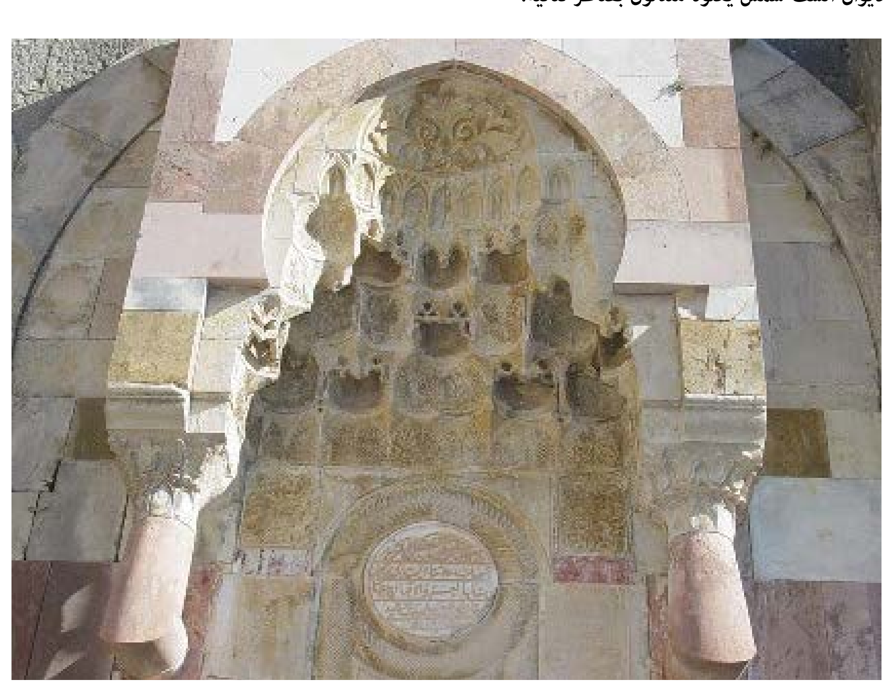
تطالع الزائر قنطرة مماثلة داخل جدار من الحجر الاصفر والابيض تؤدي الى كنيسة الكونت أورا بوربون التي ما زال حائطها الامامي يزدان بالنقوش الرخامية ويتوسط ارضها بئر عميقة، والى جانبها قنطرتان تعلوهما شرفة مزدحمة بالقناطر النحيلة، تستكملان المشهد المعماري الهندسي الصليبي بابهته وفخامته، وتشهدان على الاهمال الذي يهدد هذا الصرح التاريخي حيث تدلّت فوقهما الاعشاب البرية ولاحت تصدعات في الجدران الخارجية للبناء المحاذي لهما.

ويكشف الدرج الضيق الصاعد الى "الدار الفوقا" للقلعة عن زخارف ولوحة كتب عليها ابيات شعرية تمجّد الشهابيين، ويقود الى ايوان الامير سعد الدين شهاب الذي يملكه اليوم الامير وائل، وهو ديوان تتوسطه بركة ماء ونافورة رخامية، ارضه مرصوفة ببلاط من رخام، وتحيط به قناطر مزخرفة بالنقوش العربية خلفها جدار منمنم ومرصع بتنميقات ناعمة ومتقنة. ولتلك القناطر قبالة المدخل عمودان اجوفان من الرخام الايطالي كانا مثابة رادار لكشف اصوات اقتراب الفرسان المعادية. وتتكشف المحتويات ايضا عن صليب معكوف كان شعارا لاحد اباطرة الرومان، ولوحة فسيفساء مزركشة ما يؤشر الى ان اصل القصر يعود الى الحقبة الرومانية.

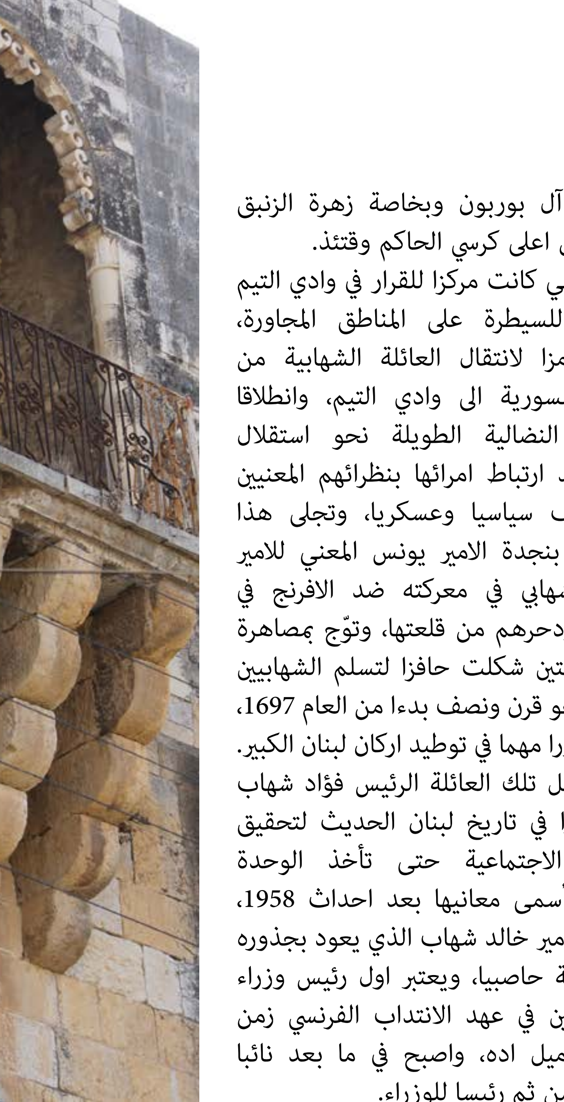
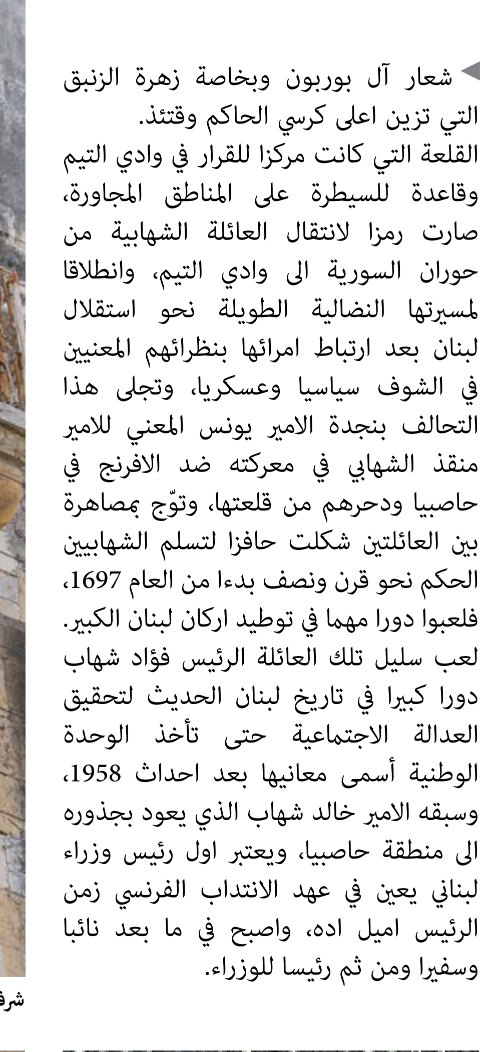
وفي "الدار الفوقا" جناح للامير مجيد ارسلان الذي يعود اليه بصلة النسب التي تربطه مع الامراء الشهابيين ويملكه اليوم الامير طلال ارسلان، ولا يقل روعة هندسية عن باقي الاقسام في القلعة، وتزيّن مدخله قنطرة عالية جدا من الرخام الملّون، امامها نافورة ماء وقاعات للاستقبال تتوسط ارضها الرخامية نجوم محفورة على حجر سداسي الاضلاع، الى البرج الوحيد الذي ما زال قائما بعد ان هدم العثمانيون ابراجها الثلاثة. هناك ايضا جناح للقاضي الشهيد عماد شهاب الذي اغتيل على قوس المحكمة في صيدا عام 1999.

واعاد الشهابيون ترميم اقسام من الطبقة العلوية بعد احداث 1860 لتأخذ شكلها الحالي على يد معماري من الشوير يدعى سليمان الحاوي. ولا زالت الزخارف الصليبية تنبض بنقوش بديعة تمثل ازهارا كانت ◀


ديوان الست شمس يعلوه مندلون بقناطر ثنائية.

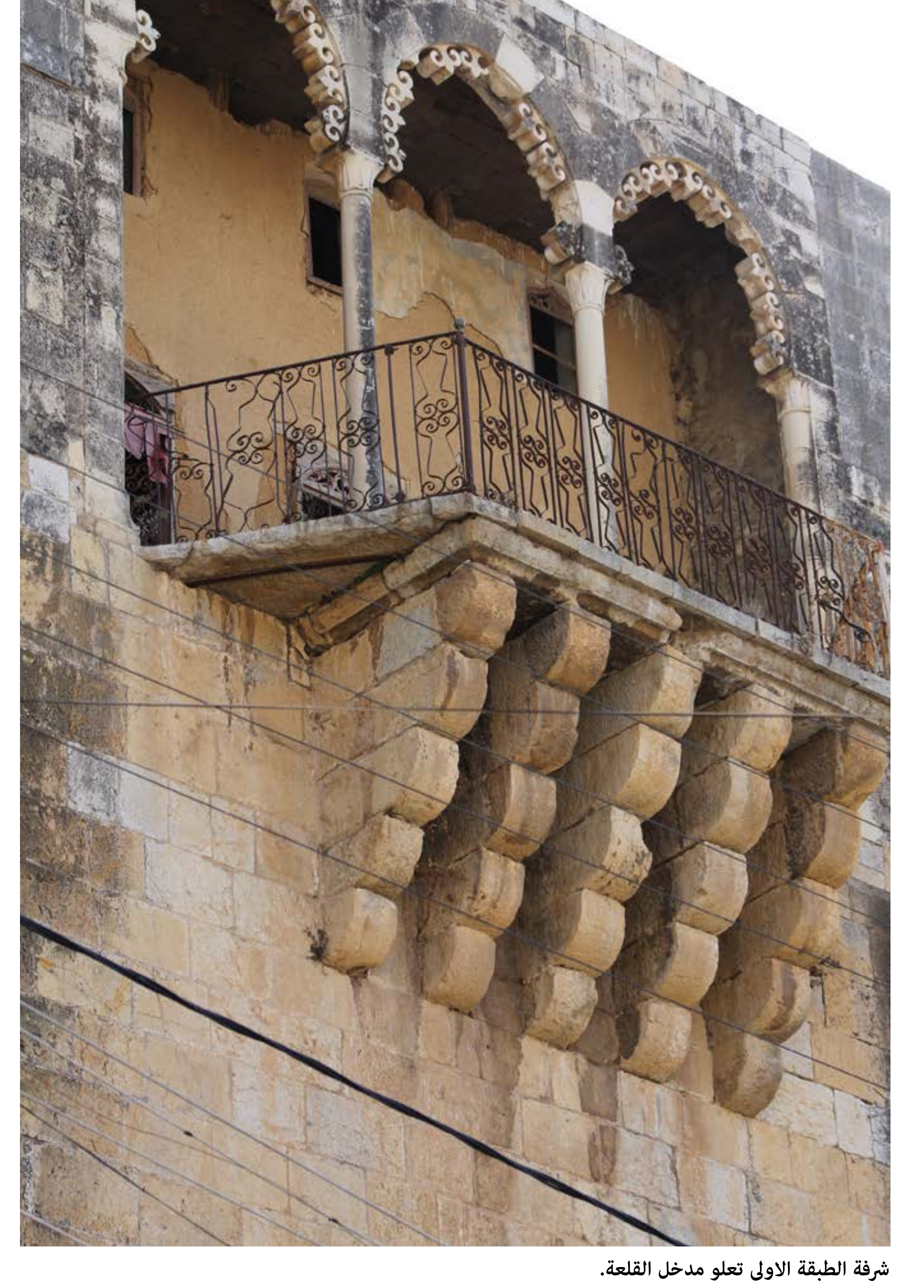

زهرة الزنبق شعار آل بوربون.

> **ديوان الست شمس ينبض بدلالاته الرومنسية مع الامير بشير**

◄ شعار آل بوربون وبخاصة زهرة الزنبق التي تزين اعلى كرسي الحاكم وقتئذ.

القلعة التي كانت مركزا للقرار في وادي التيم وقاعدة للسيطرة على المناطق المجاورة، صارت رمزا لانتقال العائلة الشهابية من حوران السورية الى وادي التيم، وانطلاقا لمسيرتها النضالية الطويلة نحو استقلال لبنان بعد ارتباط امرائها بنظرائهم المعنيين في الشوف سياسيا وعسكريا، وتجلى هذا التحالف بنجدة الامير يونس المعني للامير منقذ الشهابي في معركته ضد الافرنج في حاصبيا ودحرهم من قلعتها، وتوّج بمصاهرة بين العائلتين شكلت حافزا لتسلم الشهابيين الحكم نحو قرن ونصف بدءا من العام 1697، فلعبوا دورا مهما في توطيد اركان لبنان الكبير. لعب سليل تلك العائلة الرئيس فؤاد شهاب دورا كبيرا في تاريخ لبنان الحديث لتحقيق العدالة الاجتماعية حتى تأخذ الوحدة الوطنية أسمى معانيها بعد احداث 1958، وسبقه الامير خالد شهاب الذي يعود بجذوره الى منطقة حاصبيا، ويعتبر اول رئيس وزراء لبناني يعين في عهد الانتداب الفرنسي زمن الرئيس اميل اده، واصبح في ما بعد نائبا وسفيرا ومن ثم رئيسا للوزراء.


شرفة الطبقة الاولى تعلو مدخل القلعة.



طابع بريدي للقلعة الشهابية صدر عام ١٩٩٩.


شعار الشهابيين عند مدخل القلعة.


مشهد آخر للسرايا الشهابية.


مدخل كنيسة الكونت أورا.

نقوش آل بوربون.